التطبيق النقدي العربي في ضوء المنهج النفسي -

أبو نواس أنموذجا

Arab critical application in the light of the psychological .approach, Abu Nuwas a model

د. سؤدد جسّام حمادي
دكتوراه في الأدب العربي
معهد الفنون الجميلة الرصافة / ١

Dr. Su`dad Jassam Hummadi
PhD in Arabic Literature
Institute of Fine Art Rusafa / 1

الكلمات المفتاحية :النقد ، المنهج النفسي ، أبو نواس
key words
Criticism, psychological approach, Abu Nawas

ملخص البحث

يتناولُ هذا البحثُ جانباً من التطبيق العربي الذي قام به محمد النويهي وعباس محمود العقاد في ضوء مناهج التحليل النفسي، فقد طبّق كلا الناقدين مفاهيم هذا المنهج على شخصية الشاعر (أبي نواس) ، متخذين من سيرته وأشعاره مدخلاً لعرض أفكار هذا المنهج، وتكمن أهمية الدراسة التي تأتي بعد أكثر من خمسين عاماً على صدور الكتابين ، في إعادة فهم طريقة التلقّي العربي للمنهج النفسي وتعدّد تطبيقاته على شخصية إشكالية وإبداعية . تقوم الدراسة على مبحثين : يتتبع المبحث الاول منهج كتاب النويهي وطريقة عرض المؤلف لمباحثه في ضوء منهج التحليل النفسي، والوقوف عند أهمّ ما امتاز به المؤلف وأحسن تناوله، ومن ثم تحديد المآخذ عليه، وصولاً إلى أهمّ النتائج التي توصّل اليها أثناء تناوله لمادة هذا الكتاب. بينما يتطرّق المبحث الثاني إلى تقصّي صورة أبي نواس في كتاب الدكتور محمد النويهي (نفسية أبي نواس) وكتاب عباس محمود العقاد (أبو نواس الحسن بن هاني)، لبيان نقط الالتقاء والافتراق في المنهج والرؤية.

Abstract

This research deals with an aspect of the Arab application carried out by Muhammad Al-Nuwaihi and Abbas Mahmoud Al-Aqqad in the light of the curricula of psychoanalysis. Both apply the concepts of this method on the character of Abu Nuwas. They take his biography and his poetry an entrance to show its method. It comes more than fifty years after the publication of the two books, in re-understanding the method of Arab receptivity to the psychological approach and its multiple applications on a problematic and creative personality. The study is based on two topics: The first topic traces the approach of Al-Nouhi's book and the way the author presents his research in the light of the psychological analysis method, and standing at the most important characteristics of the author and his best handling, and then identifying the drawbacks to it, in order to reach the most important results reached while dealing with the material of this book. While the second topic deals with investigating the image of Abu Nawas in the book of Dr. Muhammad Al-Nuwaihi (Psychology of Abu Nawas) and the book of Abbas Mahmoud Al-Akkad (Abu Nawas Al-Hassan bin Hani), to show points of convergence and separation in the approach and vision.

المقدمة

مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين شهد العقل – الذي احتفت به الحداثة مطولاً- تحجيماً واضحاً لسلطته بسبب اكتشاف قارة اللاوعي لدى الانسان ، فتوجّهت الدراسات نحو أهمية اكتشاف البواعث الباطنية في تشكيل الأفق المعرفي والوجودي للإنسان، وإنَّ العقل في كثير من حالاته منقاد لنداء الغريزة والرغبات التي تختزنها مناطق اللاوعي في الكائن الحي لتتحكّم فيه وفي مواقفه الحياتية ، ولعل الحرب العالمية الاولى أسهمت من حيث لا تدري في انتاج هذا التوجّه ورفده لتقليص سلطة العقل والعلم بعد أن اكتشف الإنسان قدرته الهائلة على التدمير وتوظيف العقل والعلم لخدمة قدرته هذه، فبدأت الدراسات تتقصّى النفس الإنسانية عبر رؤى جديدة توظّف الخبرات العلمية والجسدية والسلوكية وغيرها ، وبرزت لنا مناهج واتجاهات تناولت علم النفس العام والخاص وعلم التحليل النفسي وعلم الطباع والشخصية واتجهت بعض المدارس لدراسة السلوك الانساني ، وما يهمّنا هو التركيز على المنهج السيكولوجي ونظرياته التي تحجّم قدرة العقل على توجيه الدوافع الغريزية وضبطها لتتبنّى سلوكاً متوازناً، وهذا التحجيم يأتي لصالح الرغبات والغرائز الكامنة في النفس البشرية (اللاشعور)، ليأتي الشعور فيطفو فوق حطام الرغبات. وقد أسهم التحليل النفسي في إحداث تغيير نظرتنا الى الآخرين وزوّدنا بالقدرة على دراسة شخصياتهم والتعامل معهم على وفق ما نفهمه من النظرة إلى العقل وأثره في وجهة المعاصرين للعقل فالذي يسيطر على طبائعنا إنّما هي غرائزنا وهي قوة لا عقلية[١] .

ويعدّ الطبيب النمساوي (سيجموند فرويد) مؤسّساً لعلم التحليل النفسي، وقد اشتهر بنظرية العقل واللاوعي في حين أنه تمّ تجاوز الكثير من أفكاره، وجرى تعديلها من قبل «الفرويديين» في نهاية القرن العشرين ومع التقدّم في مجال علم النفس بدأت تظهر العديد من العيوب في كثير من نظرياته، ومع هذا تبقى أساليب فرويد وأفكاره مهمة في تاريخ الطرائق السريرية وفي الأوساط الأكاديمية، وأفكاره لا تزال تؤثّر في بعض العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. يركّز فرويد في منهجه على مسألة الشعور واللاشعور ومدى تأثير كل منهما على الآخر ، فيرى أن الانسان يتحرك بدوافع لاشعورية تغور عميقاً في ذاكرته، مؤلفة من كل المواقف التي يمّر بها منذ الطفولة، وتظلّ تترك تداعياتها على سلوكه ومواقفه ، فمنها ما يتسبّب بعقدة عصبية أو مرضية أو نفسية بسبب حوادث غير طبيعية يمرّ بها الطفل ، وقد تتحوّل الى عُقد جراء عدم معالجتها بالشكل الصحيح في وقتها [٢].

وقد تخلّى فرويد عن ثنائية الشعور واللاشعور مفضّلا عليها نموذجا ثلاثياً في مقاله (الأنا والهو) ١٩٢٣ ، اذ يقول : ((تولّد الهو/ الهي الطاقات والغرائز الليبدية التي تسعى الأنا إلى السيطرة عليها كي تحدث توازناً نفسياً واجتماعياً للذات غير أنَّ هذه الأنا وفي جميع الأوقات محكومة بسلطة الأنا العليا super ego ذلك الرقيب الداخلي الذي ينوب عن الشخص نفسه وثقافته في كبت رغباته)) [٣] . ومهما يكون من شيء فإنَّ نظرية فرويد كان لها أثر في الاتجاهات والمذاهب النقدية مثل البنيوية ، ونظرية المعرفة لفوكو ونظريات استجابة القارئ والنقد النسائي والنقد ما بعد الكولونيالي [٤].

ويعدّ الفيلسوف الانكليزي «جود» في كتابه (منازع الفكر الحديث) مذهب التحليل النفسي من أعمق المذاهب وأشدّها نفاذاً من جميع الاتجاهات الفكرية التي تناولها في كتابه وهي تتعلّق بالمذهب المادي وتصوراته وعلم الفيزياء ونظريات في الحياة والمذهب الحيوي ،

وفي ظل هذه الاتجاهات العلمية كان مذهب التحليل النفسي يحاول أن يشدّ أزره ويؤسّس لمرحلة جديدة ، ويجمل الفيلسوف «جود» أصول هذا المنهج بنقطتين اثنتين هما : (الحتمية واللاعقلية) [٥] .

وفي مثار نقد السيكولوجية الجديدة يقول جود : إنَّ مضامين السيكولوجية الجديدة أدّت إلى أن ننسب أهمية أكبر ممّا ألّف أصحاب القرن التاسع عشر إلى الغريزة والدوافع الخفية في طبائعنا وأن نسلم بأن تأثيرات غير عقلية قد تدفع العقل إلى التحّيز ومجانبة الحقيقة إلى حدود لم تكن مظنونة ، وبصورة عامة يرفض الدكتور جود منح هذه الأهمية للغريزة وإقصاء العقل في العملية النفسية لاسيما وأن التطوّر برأيه هو عملية تحوّل للرغبات اللاشعورية والدوافع العمياء في الحيوانات إلى البصيرة المتطلعة والبواعث العقلية في الإنسان[٦].

وفي مكان آخر فإنَّ العالم «ادلر» يصل بنظرياته إلى النتائج الفرويدية بسبيل آخر، ذلك أنه يرى أن المفتاح الذي يفضّ اغلاق النفس البشرية يتعلّق بالرغبة في التعويض عن الشعور بالنقص[٧] . وقد أكد ادلر كما لم يؤكد مثله أي من علماء النفس على الأهمية الأساسية لسنوات الطفولة الأولى وتأثيرها في الحياة المقبلة للرجل لأنَّ الاساليب التي يتخذها الطفل للتعويض عن شعوره بالنقص تقرّر طبيعة الهدف الذي يوجّه نشاطه خلال حياته كلها [٨].

المبحث الأول

تطبيقات المنهج النفسي

كتاب نفسية أبي نواس لمحمد النويهي

يتعلّق الكتاب الذي سنعرضه في هذا البحث بشاعر عباسي كان له أثر كبير في الارتقاء بمسار الشعر العربي من البداوة إلى الحضارة ، بما تمتلكه جرأة التغيير من مقومات شخصية وثقافية أسهمت في مدّ تأثيره إلى أجيال من الشعراء الذين جاؤوا بعده ، وهو الحسن بن هانئ الملقّب بأبي نواس ، أمّا عنوان الكتاب فهو (نفسية أبي نواس) ألّفه الدكتور محمد النويهي إلى جانب مؤلفات أخر مهمّة رفدنا بها من أهمّها (الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه ، قضية الشعر الجديد ، ثقافة الناقد الأدبي) ومؤلفات أخر أغنت مكتبتنا النقدية.

وبادئ ذي بدء أقول إن هنالك دراسات وحتى سنوات قليلة مضت تتناول كتاب النويهي معقّبة عليه ، ومدوّنة ما له وما عليه من ملاحظات ، كما في البحث المنشور في مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية للدكتورة ريم هلال بعنوان (الدرس النفسي لأبي نواس ما بين العقاد والنويهي) وهو ما صعّب عليَّ طريق البحث على الرغم من إيماني بأنه لا يوجد موضوع يمكن أنْ يُستهلك نهائيا لكن توجد هنالك أفكار عامة وقراءات مشتركة يمكن أن تُضيّق حدود الإتيان بجديد ، ولمّا كان اشتغالي على تطبيق المنهج والمزايا والمآخذ ، فمعنى ذلك أني سأجد من سبقني إلى ذلك، لاسيما وأن أكثر من نصف قرن مرَّ على إصدار هذا الكتاب ويكفي أن الدكتور طه حسين كانت له آراء وملاحظات على الكتاب جديرة بالملاحظة. ومع ذلك لا يخلو البحث من قراءة جديدة ستتضح في الصفحات القادمة.

إنَّ النويهي بقراءته لنفسية أبي نواس إنّما يشير الى أثر واضح لمكونات الشخصية وميولها وعلاقتها بالإبداع ، وإنَّ النص قبل كل شيء هو تعبير عن وجدان صاحبه ، وموقفه من الحياة، والاّ فما دعا النويهي ليسلّط الضوء على شخصية أبي نواس عبر نتاجه الأدبي؟ على وفق مناهج نفسية برز بشكل واضح تأثيرها في تلك المدة ، وهي إشارة تناهض ما دعت إليه الشكلانية لاحقا، وما أشار اليه رولان بارت في مقاله «موت

المؤلف» من أن ميلاد القارئ يجب أن يكون على حساب موت المؤلف، هذا الموت الذي يشوّش الطريق نحو معرفة الأديب عبر نتاجه وهو اتجاه اهتمّت به الدراسات النقدية العربية، فكيف يمكن أن نُقرأ خمريات أبي نواس، أو هاشميات الكميت أو تشبيهات ابن المعتز أو وجدانيات ابن الفارض أو اجتماعيات حافظ إبراهيم والرصافي بمعزل عن الأديب نفسه – كما يقول الدكتور أحمد مطلوب ، في كتابه «في المصطلح النقدي».

ومن الجدير بالذكر أن– نفسية أبي نواس - لم تكن أولى الدراسات التي أصدرها المؤلف والتي تعتمد المناهج السياقية اذ سبقتها دراسة شخصية بشار بن برد وشخصية ابن الرومي اتّبع فيها المؤلف مناهجَ سياقية مثل المنهج النفسي والمنهج الاجتماعي ، ثم أنَّ هذه الدراسات التي أصدرها محمد النويهي يبدو فيها – وبشكل جلّي – تأثّره بأستاذه طه حسين الذي درس أبا العلاء المعري في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء) سنة ١٩١٤، والاتجاه النفسي في دراسات طه حسين بارز فضلاً عن مناداته بضرورة اعتماد الباحث الأدبي على خلاصة ما ينتهي إليه المتخصصون من النتائج في الدراسات العلمية الأخر[٩].

لم تكن دراسة النويهي لأبي نواس هي الدراسة الأولى فقد سبقتها دراسة العقاد للشاعر نفسه غير أنَّ آراء النويهي اختلفت عن العقاد في دراسة كل منهما لشخصية الشاعر - وإنْ انطلقا في دراستيهما من المنهج نفسه - ففي الوقت الذي ربط فيه النويهي تعقّد نفسية أبي نواس وغرابتها بعوامل نفسية واجتماعية، أرجع العقاد في كتابه (أبو نواس الحسن بن هانئ) ذلك إلى أسباب ذاتية خاصة بشخصية الشاعر وطباعه بالدرجة الأولى.

في كتابه يتقصّى النويهي أربع مراحل ميّزت حياة أبي نواس وهي : (الخمرة ، الشذوذ ، النشوة الدينية ومن ثم الاندفاع والانحلال) فيقف عليها بشيء من التفصيل معتمداً على أدوات التحليل النفسي لرصد الأسباب المختفية وراء سلوك النواسي ومواقفه ، فيبدأ بتناول كل مرحلة من المراحل السابقة، ويقف على العوامل المؤثّرة في نفسية الشاعر وتداعياتها بحسب ما تعكسه أشعاره وما توارد عنه من أخبار.

وللوهلة الأولى قد تبدو عناوين الفصول التي قدّمها المؤلف غير خاضعة لترتيب معيّن أو رابط واضح ، فلماذا ابتدأ النويهي فصله الأول بموضوع (الخمر) مثلا؟ ثم أتبعه بفصل الشذوذ ؟ في حين كانت النشوة الدينية تتوسّط فصول الكتاب لينتهي الفصل الأخير بعنوان اندفاع وانحلال ؟! ولكن نظرة فاحصة للكتاب تكشف أنَّ هذا الترتيب لم يأتِ اعتباطاً ، فكما هو معروف إنَّ الخمرة ارتبطت بأبي نواس ارتباطاً وثيقاً حتى عصرنا الحاضر ، فما أنْ تُذكر حتى يُذكر أبو نواس معها ، وما أنْ يُذكر أبو نواس حتى تذكر معه الخمرة؛ لذا قدّم المؤلف هذا الموضوع في فصله الأول تبعاً لحجم المساحة وعمق الارتباط اللذين جمعا الخمرة بأبي نواس، وإنها ستكون عماد المراحل الأخرى التي سيتطرّق إليها النويهي وهو يحلّل مراحل حياة النواسي، ويعرض عقده النفسية عبر شواهد حضور الخمر في حياته، ثم يحلّ فصل الشذوذ ثانياً، وقد وفّق النويهي في ترتيبه هذا حتى مع علمنا بأنَّ أبا نواس قد شغل موضوع الغزل بالمذكر المساحة الأوسع في شعره على حساب الخمر الذي حلَّ ثانيا[١٠] ، لكن لا يمكن تعميم مقياس الكثرة في هذه الحالة؛ لأن غرض المؤلف كان اثبات أنَّ الخمر شكّلت المعادل النفسي لجميع الانتكاسات النفسية التي مرَّ بها شاعرنا ، وجانب منه يتعلّق بالشذوذ نفسه، امّا الفصل الثالث الذي حمل عنوان (النشوة الدينية) فقد توسّط فصول الكتاب وجاء موضوعه نقيضاً للفصول

التي سبقته ، وإذا كانت هناك بعض الآراء التي تقول : إنَّ أبا نواس قد تنسّك في آخر أيامه ، فإن مؤلف الكتاب لم يعتد بهذه الآراء ، والدليل على ذلك ترتيب هذا الفصل الذي جاء متوافقاً مع رأي المؤلف في هذا الموضوع ، فلو أن النويهي قد وافق الآراء التي قالت : إنَّ التوبة كانت في خاتمة حياة الشاعر لما كان هذا الفصل هنا، بل لجاء خاتمةً لفصول الكتاب، في حين إنَّ الفصل الأخير حمل عنوان (اندفاع وانحلال) ، وهو ما آلت إليه حياة أبي نواس في أُخريات أيامه ، إذ يقول المؤلف : إنَّ أشعار أبي نواس في الزهد موّزعة على أوقات متباينة تخلّلت حياته ، ولم تعبّر عن توجّه كامل خصّه أبو نواس آخر مرحلة في حياته [١١]، ويشفع هذا الرأي بأدلة مّما يبطل بعض الآراء التي تقول : إنَّ أبا نواس تزهّد في آخر أيام حياته ، كما إنَّ الفصل الأخير في منهجية المؤلف شكّل النتيجة التي سعت للوصول إليها فصول الكتاب بما قدّمه المؤلف من عرض لمضمون هذه الفصول .

ثانياً: مزايا الكتاب :

أ- يمتاز الكتاب بأُسلوبه الواضح ، وتخلو ألفاظه وعباراته من التعقيد الذي تتصف به بعض المؤلفات ، فتعيق القراءة بخلقها حواجز ومنعطفات لغوية تُعقّد المعنى وتُضيّع على القارئ فرصة الإمساك بالفكرة، فضلاً عن لغة الكتاب وأسلوبه ، فقد طُرحت موضوعات الكتاب بشيء من التفصيل – وهذه مزية تسجّل للمؤلف - فهو في معرض تناوله لها يقدّم المبررات التي تسوّغ ما يتوصّل إليه مستعيناً في كل ذلك بشعر الشاعر ونتف من أخباره ، فقد وقف وقفات طويلة عند أغلب المظاهر التي قدّمها ، وأغناها بحثاً.

ب - انسجام الهرم الفكري ، فكل فصل يحيل إلى آخر ، اذ لا يخفى عنا تمهيده للفصل الثاني – الشذوذ الجنسي - في آخر صفحات الفصل الأول ، فبعد أن يقف وقفة طويلة في الفصل الأول على موضوعة الخمر يتناول في نهاية هذا الفصل علاقة الخمرة بالجنس لينتقل في الفصل الثاني بالحديث عن الشذوذ وذلك من خلال تحليله لأشعار الشاعر ، فكانت النتائج التي توصّل إليها تعتمد على استنطاق النصوص والبحث عميقاً في معانيها ، ليكشف لنا عن ترابط موضوعي بين الفصول، كما نلحظ في إحدى اختياره [١٢]:

ثم اتت في الحباب يخفرها

مثنى هويني ما إن به نزق

إذ نلحظ في هذه الأبيات التي انتقاها النويهي ارتباط الخمرة بموضوعة الجنس بشكل واضح، مّما أدّى إلى تماسك الموضوع الذي يعالجه في هذا المقام . وكثيراً ما يُعضّد النويهي فكرته بحسن اختيار الأبيات التي تعالج الموضوع على مدى صفحات الكتاب ، فنراه قبل أنْ يختم فصله الثاني - الشذوذ - يربطه بالفصل الأول الذي سبقه ، وهو فصل الخمر؛ لينتهي إلى أن كلاً منهما مرتبط بالآخر، والرابط بينهما هو التعويض ، يقول : ((... القارئ الذي يفكّر فيما قدّمناه في الفصل الأول من تحليل لهاتين العاطفتين في موقفه نحو الخمر ، والذي يتأمّل في الحقائق التي شرحناها في هذا الفصل عن شذوذه ، يستطيع أن يستكشف الرابطة بين شعره الخمري وشذوذه. وهي رابطة تشرحها هذه الكلمة الواحدة «تعويض» بالمعنى النفساني الدقيق الذي يستعمل فيه هذا الاصطلاح)) [١٣].

وفي موضع آخر نلمس ارتباط الأفكار ودقة الطرح عندما يربط النشوة الدينية – الفصل الثالث- بنشوة الخمر ، فيعود بنا إلى الفصل الأول ، فيقول : ((وتذكّر الآن ما فصّلنا القول فيه في الفصل الأول عن إثارة الخمر لإحساسات التعبّد والتقديس في نفسه ، وعد إلى أناشيده

الخمرية التي روينا بعضها وهي أشبه بالصلوات الدينية ، نترنّم بها فتهتزّ معها أجسامنا ويصيب عقولنا دوار يشبه انتشاء الصوفية في حلقات ذكرهم)) [١٤].

وفي حقيقة الأمر أن الفصول الأخر التي تلت الفصل الأول (الخمر) يربطها النويهي بشكل أو بآخر بالفصل الأول وهو يؤكد ذلك عندما يتحدث عن حبّ الشاعر للخمر في الفصل الأول فيقول : ((ما سرّ هذا الحب العجيب؟ هذا سؤال سنقضي كتابنا كله في الإجابة عليه واستكشاف سبب له بعد سبب)) [١٥] فالفصل الأول ، اذن كما أسلفنا، كان المرتكز الذي ارتكزت عليه بقية الفصول.

جـ - يربط النويهي الإيقاع والوزن بالتحليل النفسي، فيقول : ((ان جميع هذه القطع التي اخترناها – ونظائرها في ديوانه كثيرة – هي من بحر الرمل بضربه المجزوء الصحيح ولا يحتاج القارئ إلى أن نلفته كيف يلائم هذا الوزن ملاءمة غريبة اهتزاز الشاعر وتثنيه في نشوته . ولعله لاحظ أيضاً جمال رويّ الحاء في القطع الأربع الأخيرة ...)) [١٦] ، وهذه مسألة مهمة في تحليل النص الشعري التفت اليها النويهي عرضاً في هذا الكتاب في حين عمّقها في دراسات أخر ، في كتابه عن بشار بن برد وكتابه عن الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه .

د. يعرض النويهي في بعض الأحيان مادته عرضاً تاريخياً، بمثابة عرضه روايات أو إدراجه بعض الأخبار ، وفي أحيان أخر تكون دراسته أعمق فيبحث في الأسباب التي أدّت إلى هذه الظاهرة مثل بحثه عن أسباب الشذوذ ، إذ طرح النويهي مجموعة أسئلة حاول الإجابة عنها على مدى صفحات عدة؛ لينتهي إلى أسباب ذلك بعد أن ميّز بين ثلاثة أنواع من الشذوذ: نوع يحيله للتكوين الجسماني للفرد ، وآخر تنتجه عوامل نفسانية ، في حين جاء الثالث نتيجة ظروف اجتماعية ، فيقدّم المؤلف عرضاً شاملاً لهذه الانواع ومن ثم يربطها بالشاعر قيد الدراسة [١٧].

ه. كان تحليل الأبيات في الفصل الأخير أكثر دقة وموضوعية من الفصول الأولى التي اكتفى فيها في أغلب الأحيان بشرح الأبيات ، ويمكن تعليل ذلك في كون الفصل الأخير هو نتيجة لبقية الفصول فكان تحليل المؤلف لها أكثر عمقاً من بقية الأبيات الأخر ، كما أنَّ هناك أبياتاً تضمّنها الكتاب قد وقف عليها المؤلف في أكثر من موضع ، فقصيدة أبي نواس التي مطلعها (الا فاسقني خمرا...) جاء تناولها من لدن المؤلف أكثر من مرة وفي مواضع وموضوعات مختلفة [١٨].

ثالثاً: المآخذ على الكتاب :

لا يخلو أي مؤلف مهما كانت مدى براعته من مآخذ الى جانب مزاياه ولكنّ المآخذ والمزايا تدرك بصورة نسبية، وتحدّد بحسب توجيهها ، وإخضاعها لمبدأ الدراسة الموضوعية وهو معيار يحجّم تطرّف التأويل؛ لأنه يخضع لاشتراطات القراءة المتأنّية ، وما رصدناه من مآخذ على الكتاب يأتي في الصفحات الأول من الكتاب وهي :

أ. كثرة استطرادات المؤلف التي توّزعت على صفحاته ، وهي في الغالب استطرادات لا ضرورة لوجودها ، فمثلا عندما يتحدّث عن حبّ أبي نواس للخمر في الصفحات الأُول نلمس استطرادات منها إنه يصف نوع الحب بتفصيل لا ضرورة له يمتدّ على مدى صفحات ، يشبّه فيه هذا الحب بأكثر من تشبيه ، وهو استطراد يمكن الاستغناء عنه ، يقول : ((لم يكن حبه للخمر من نوع حب أحدنا لشراب لذيذ، لم يكن كحب أحدنا لعصير البرتقال وحب آخر لعصير الليمون ... أحبّ أبو نواس الخمر كما يحبّ أحدنا شخصاً عزيزاً عليه قوي

الامتلاك لقلبه ، ولداً أو والداً أو زوجاً أو صديقاً حميماً ، يحبه لصفاته الخيرة ، ويحبّه برغم صفاته المرذولة بل يحب فيه أحياناً صفاته المرذولة هذه ، بحّبه «هو» يحبّه لأنه مخلوق خاص متميّز عن سائر المخلوقات ، وان كان في سائر المخلوقات من يفضّله ... الخ)) [١٩]، فيا ترى هل كان المؤلف مضطراً إلى هذا التفصيل ؟!

وفي معرض تحليله لبيت أبي نواس :

عاذلي في المدام غير نصيح

لاتلمني على شقيقة روحي[٢٠]

يقول : ((يقصد مايقول بالحرف ، لا يستعمل مجرد أسلوب مجازي يصوّر به مدى حبه الكبير لها، بل يعني إنها فعلاً «شقيقة روحه» ، كما تصير زوجة أحدنا بعد طول العشرة شقيقة روح ، أو كالوشيجة المتينة الباقية بين الولد والام)) [٢١]. ومثل هذه الأمثلة لتقريب الصورة التي يريد أن يوصلها النويهي لقارئه كثيرة في كتابه فهو عندما يتحدث عن عاطفة أبي نواس عن الخمر يستطرد لتمثّل عاطفة أم فقدت ولدها ، حتى نحتار في أمر القارئ الذي يتصوّره النويهي ، فكأنه يتعامل مع قارئ على مستوى متواضع جداً من المعرفة لا يمكنه أن يفهم شكل العاطفة التي يتحدّث عنها ، ولربما في تصوّره إن إمكانية اقتناع القارئ بحاجة إلى إشباعه بإيراد تلك الأمثلة ، وهذا يسجّل للنويهي كسلاح ذي حدين ، ففي الوقت الذي يرى فيه جانب من القراء إنه يأخذهم بعيداً عن النص أو الكتاب ، يرى فيه قراء آخرون توضيحاً وإغناءً للفكرة ، يقول : ((.. فإن أردت تمثّل العاطفة فتخيّل حالة أم فقدت ولدها ومرت سنون طوال . ثم هي تعثر فجأة في بعض أركان البيت على ملابسه أو لعبه أو غير متاعه . قميص صغير قد أحال لونه الزاهي مرّ السنين ، أو حذاء لا يزال جديداً كأنما خلعه بالأمس، أو دمية تبيّن فيها الندوب التي خلّفها جذبه وكدمه . وفكّر في هياج حنينها ، واستعار لوعتها تكاد تمزّق صدرها . فترفع إليها هذه الأشياء تضمّها إلى صدرها وتشّمها وتقبّلها بدموعها . وتهمّ بتركها والمضي في عملها المنزلي ولكن يغلبها الجوى ثانية وثالثة ورابعة وخامسة)) [٢٢]. فهل كان النويهي بحاجة لمثل هذا الاستطراد الطويل الذي لاضرورة له ؟! فضلاً عن ذلك فهذه التفصيلات بدلا من أن تقرّب الصورة لقارئ ما ، تشتّت ذهن أغلب قراء هذه المؤلفات.

وربما وللوهلة الاولى – وكما شعرتُ أنا - سيشعر القارئ أن هذا الاستطراد ربما سيخفّ بتقدّم البحث ، لكن مع الاستمرار في القراءة، يجد أن هذا هو أسلوب النويهي على مدى صفحات الكتاب برمّته، وإن كان الفصل الأول يشكّل الجزء الأكبر من هذه الحالة [٢٣] . وكان من الممكن أن تُختصر هذه الصفحات الطويلة إذا كان المؤلف يريد تعزيز الفكرة أو إيصالها إلى القارئ ، بل كان بالإمكان إحالة القارئ في هامش الكتاب إلى مصدر هذه المعلومات ، مع الإشارة إلى المصادر التي تفي بحاجة من يروم التوسع، غير أن النويهي لم يسند هذه الأخبار لمصادرها وظلّ يسترسل في هذا الموضوع فيأخذ القارئ بعيداً على مدى أكثر من عشر صفحات نائياً به عن الموضوع الأساس ممّا يؤدي إلى تشتّت ذهنه فضلاً عن ضياع الفكرة موضع الدرس . ولابد من الإشارة هنا – وفي استطراده هذا - الى إنَّه بعد هذه الصفحات الطويلة يضع تبريراً لإطالته في عرض آراء أطباء وعلماء ومؤلفي كتب في علم النفس وشرح آراء بعض المشاهير ووجهة نظرهم في شذوذهم ويقرن هذا التبرير بأبي نواس فيقول : ((وإنما أطلنا في شرح رأيهم لأنه يعبّر عن وجهة نظر شاعرنا العربي ، فأبو نواس حاول أيضاً أن يبرر شذوذه بأنه شيء جميل مهذب متحضر أنتجته الحضارة العباسية)) [٢٤].

ويستمرّ هذا النوع من الاستطرادات حتى فصله الأخير من الكتاب ففي معرض تناوله لأبيات أبي نواس (ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر...) يقول : ((فيصيح : وقل لي هي الخمر !)) [٢٥]. ويبدو أن المؤلف نفسه يعلم بكثرة استطرادته هذه ، إذ يعترف هو بذلك حين يقول في أحد مواضع الكتاب : لا نريد أن ننساق في استطراد آخر طويل ، غير أن الغريب في الأمر أنه بعد أن ذكر هذه العبارة يستطرد أيضاً في هذا الموضع على مدى صفحات[٢٦] .

ب - يورد النويهي الكثير من الأخبار لا نرى مصدراً لها سوى المؤلف نفسه، فلقد ذكرنا أنَّ الكتاب كان مليئاً بالاستطرادات ومنها التي تقدّم لنا أخباراً ، غير أنَّ المواضع التي وردت فيها هذه الأخبار لم نلمس لها مصدراً معّيناً ، إذ يخلو الكتاب من الهوامش التي تُسند فيها الروايات والأخبار لمصادر معيّنة ، وبشكل عام لم يذكر النويهي مصادر في هذا الكتاب ماعدا المصادر الأجنبية التي تختصّ بعلم النفس، والتي جاءت على شكل هوامش توّزعت في بعض صفحات الكتاب، وكون الكتاب يخوض في هذا المضمار – علم النفس – لا يعني بالضرورة أن يغفل المؤلف مصادر بعض الأخبار التي ذكرها عن حياة أبي نواس وسلوكياته وكل ما يتعلّق به ، وبالمقام الأول أبياته الشعرية التي جاءت في الكتاب غير مسندة لأي مصدر أو ديوان ، ولابد أن ننوّه هنا أنَّ هناك إشارات قليلة جداً لمصدر واحد أو أكثر جاءت في المتن كإشارة النويهي لابن منظور وابن خلكان في إحدى صفحات الكتاب[٢٧] ، غير أنَّ المؤلف أدرج في مواضع قليلة من الكتاب بعض مصادر علم النفس الأجنبية.

جـ - وفي هذا المقام أيضاً لابد من الإشارة إلى أنَّ المؤلف أغفل المقدمة في كتابه [٢٨]، كما أغفل المصادر ، وكما هو معروف إن القارئ بحاجة لهذه المقدمة التي يقدّم فيها المؤلف منهجه فضلاً عن خطة الكتاب أو هدفه أو المصادر التي اعتمد عليها ، نقول : شخص بحجم النويهي لماذا يغفل عن ذلك ؟ إذا كانت المقدمة موجودة كمنهج في الكتب في الخمسينيات – وقت صدور هذا الكتاب – وعدم وجود مقدّمة يخلّ في منهج أي بحث ، وكما أغفل المقدمة فنلحظ أنَّ الكتاب خالٍ من الخاتمة ، وكان الفصل الأخير وبخاصة صفحاته الأخيرة أشبه بخاتمة للكتاب وإنْ لم ترد كخاتمة مستقلّة بذاتها.

د - يقول النويهي : ((الحق أنه في أواخر أيامه كان يعيش على شفا حفرة من الجنون . نعني هذا الاختلال العقلي الكامل الذي يفصم بين صاحبه وبين وقائع الحياة فصماً تاماً . وأغلب ظّننا أنه لم ينجه منه إلاّ موته الذي عجّل إليه . ونوع الجنون الذي تأرجح على حافته ولم ينجه منه إلاّ سبق المنية هو فيما نعتقد النوع المسمى manic depressive – ...)) [٢٩]، كما يقول في موضع آخر (...إلى آخر ما صوّره له خياله المريض) [٣٠]، ويمكن القول : إنَّ إحالة النويهي اضطراب شخصية أبي نواس وتقلّبات حياته إلى عقدة رافقته من الطفولة تركت أثرها على سنّي حياته تحتمله الدراسة ، غير أنَّ قوله بأنَّ أبا نواس كان مريضاً أو مصاباً بنوع من الجنون أو على وشك ذلك فإن في ذلك قدراً من المبالغة فضلاً عن مجافاته للحقيقة ، إذ لم تذكر لنا المصادر التاريخية التي قدّمت أبا نواس شيئاً من قبيل هذا الأمر ، ولم تنقل الروايات عنه موقفاً مشهوداً يؤيّد ذلك ، ثم إنَّ النويهي نفسه لم يجزم في ذلك إذ يقول في موضع آخر : ((وهو برغم رقصه المخيف على حافة الجنون لم يسقط فيه بل ظلّ محتفظاً برشده ووعيه إلى لحظاته الأخيرة)) [٣١] .

د. ومن النتائج التي قدّمها المؤلف بعد أن وقف وقوفاً طويلاً على ظاهرة الخمرة في شعر أبي نواس وحيلته

أنَّه يعزو كل ما ذكره بعد ذلك إلى الانفعال الفني عند تقديس الخمر يقول : ((قلنا إن أبا نواس يتدرّج في «تفكيره» في الخمر حتى يصل إلى تقديسها وعبادتها ، ولكن «التفكير» لم يكن طريقه الوحيد إلى ذلك بل لم يكن طريقه الأعظم ، فليس أبو نواس في جوهر تكوينه مفكراً ولا فيلسوفاً ، إنما هو فنان، فوصوله الأغلب الى هذا الامر جاء عن طريق الانفعال الفني)) [٣٢] ، ثم يقدّم المؤلف شرحاً وافياً منطلقاً من دراساته النفسية لإثبات ذلك الرأي[٣٣] .

ه. واذا كان المؤلف قد نجح في هذه الخطوة باعتماده منهج التحليل النفسي لتطبيقه على دراسته لأبي نواس ، إلاّ إنَّ النويهي لم يكن موفّقاً في إقحام بعض نتائج الدراسات النفسية كنتيجة لدراسته شخصية أبي نواس ، فعلى سبيل المثال لو كان ما انتهى إليه الناقد محمد النويهي من أنَّ إحدى أسباب سلوكيات أبي نواس كانت سيرة والدته ونفوره منها[٣٤] اذن لماذا لم يورد لأبي نواس أي بيت شعر نشعر فيه بسخطه على أمه ؟، ثم هل صحيح إن التواءه الجسدي أدّى الى شذوذه؟

في مواضع أخر من الدراسة تبدو أيضاً المبالغة في آراء النويهي وأحكامه فعلى سبيل المثال يحدّد أن المراد بقوله إنَّ أبا نواس يعبد الخمر بالمعنى المباشر لها ، يقول : ((إنما نعني العبادة بمعناها الضيق المحدود ، بمعناها الديني)) [٣٥] ، فيؤكد على عبادة أبي نواس للخمر وتقديسها[٣٦]

والنويهي في معرض حديثه عن هذا الموضوع يورد بيتاً لأبي نواس يناقض فيه ما قرّره سابقاً وإن كان إيراده لهذا البيت على نية التأكيد ، فهو حين يحاول أن يثبت أنَّ الخمر[٣٧]

فهل ياترى أنَّ هذا البيت الذي أورده المؤلف يؤكد عبادة أبي نواس للخمرة أم ينفيها ؟! ، إذا كان هذا البيت يؤكّد عدم معرفة أبي نواس بوجود تلك الأقوام فهو في الوقت ذاته ينفي عن أبي نواس فكرة تقديسه للخمرة وعبادته لها باستخدام الشاعر للجملة الشرطية التي تبدأ بـ (لو) حرف امتناع لامتناع ، في حين أنَّ ربطه الخمر بالجنس في نهاية الفصل الأول ليست فيه مبالغة ، فلقد عالج النويهي ذلك من خلال تحليله لأشعار الشاعر فكانت النتائج التي توصّل إليها منطلقة من تلك الأشعار[٣٨] . إذن ، إننا نرى في جعل النويهي من الخمرة معادلاً لنكسات أبي نواس النفسية أمراً مبالغاً به ، لأننا لا نعرف ما نوع العلاقة التي كانت بين أبي نواس وأمّه؟ بمعنى هل كانت تحيطه بالعطف والدلال؟ أم لم يكن له نصيب من ذلك؟ وما هي الأسباب التي دفعته لترك المنزل؟ وما نوع المعاملة التي تلقّاها أبو نواس من زوج أمه ، كل هذه المعلومات لا يسعفنا بها النويهي بالرجوع إلى المصادر التاريخية عن الشاعر التي في أغلب الأحوال لا يمكن الاعتماد عليها بشكل قاطع قبل أن يجري اختبارها بوسائل النقد التاريخي [٣٩]، وعلى أي حال تؤيد الشواهد التي يتطرّق إليها النويهي تباعاً إصابة أبي نواس بعقدة أوديب ، ويرى النويهي أنَّ أبا نواس كان بسبب علله النفسية وطباعه قادراً على إعلان الرفض لتمثّلات الخفاء بفضح السلوكيات المتوارية خلف الحياة الاجتماعية القائمة آنذاك . وما نودُّ قوله إنَّ إدمان الخمر يعدّ لوحده سلوكا تقف وراءه جملة من الأسباب لا تقتصر بالضرورة على عقدة أوديب ، فإذا جمعنا معها الخواص الجسمية والبايولوجية لأبي نواس سيصبح هنالك تفسير علمي لسلوكه الشاذّ، كان الأكثر حيزاً في شعره[٤٠] ، فلربما علينا وقتها أن نخفّف من حجم التعويض الذي يمنحه إياه الخمر، وإذا ما ذهبنا مع العقاد في أنَّ المرأة هي من كانت تعرض عن أبي نواس، وأنه كان مرفوضاً من قبلها علينا أيضا أنْ نعيد

النظر بحجم عقدة أوديب في العلل النفسية لأبي نواس.

وليس شرطاً التسليم بكل آراء النويهي على الرغم من عمق دراسته لشخصية أبي نواس ونجاحه في إعطاء الأدلة والبراهين على ما قاله فيه ، ولكل باحث أو ناقد رأيه الخاص في ذلك ، غير أنه وفي حقيقة الأمر لا نرى أنَّ كل ما امتازت به شخصية أبي نواس من تقلّبات في حياته تعود لمرض نفسي أو سبب آخر ممّا ورد ، إنما يعود لروحه المتعطّشة لمتع الحياة ولهوها ، ورغبته في الانفتاح على الحياة ، فضلاً عن أنَّ ما آلت اليه نفسية أبي نواس هي ثورة على الذات .. ثورة على المجتمع ، الانفتاح أدّى به إلى ثورة، ومن ثم المجاهرة بذلك ، فالشاعر أسّس لنقد الدين والأخلاق؛ لذا فإنَّ تماديه لا يمكن إحالته لمرض نفسي أو التواء جسدي ، فالمؤلف في بعض المواضع من الكتاب يقحم النظريات النفسية ونتائج دراساتها على الشاعر ، ولا نعدم لأبي نواس وقفات تدلّ على لومه لنفسه نتيجة لهذا التمادي ، وهذا ما أبرزه لنا فصل النشوة الدينية الذي أظهر هذا الأمر، وتناول ذلك محمد النويهي غير أنه أرجعه للائمين[٤١] ، يقول أبو نواس :

لو كان لي سكن بالراح يسعدني

لما انتظرت بشهر الصوم افطارا[٤٢]

اضطراب الإشارة إلى المناهج التي يستقي منها النويهي إطاره النظري، فمثلاً هو يعتمد على آراء فرويد في تبنّي عقدة أوديب لأبي نواس[٤٣] ، لكنه لا يشير إلى مصدر فيقول : ((أيما طفل فهو «هاملت» صغير في شعوره نحو زوج أمه ، وفي شعوره نحو أمه نفسها)) [٤٤] . وفي موضع آخر يحيلنا إلى مصطلح من دون أن يشير في الهامش الى رقم الصفحة ليتسنّى للباحث متابعة المصطلح ((علماء النفس المعاصرون يضربون أمثلة عديدة على الأشياء التي يلجأ اليها هذا التعويض ، ويخصّصون لهذه الظاهرة مصطلحاً أعطيناه من قبل)) [٤٥] . ويؤكد على الغريزة وأثرها في تحجيم العقل ولا يشير إلى المصطلح الذي يتطرّق إلى شرحه : ((ظاهرة الارتداد النفساني يستعير علماء النفس مصطلحاً معروفاً في علوم الأحياء ... ليصفوا ما يحدث بالنفس البشرية من ارتداد غريزي أو عاطفي إلى أحوال نفسانية كانت موجودة في قديم البشرية بين الجماعات الهمجية التي كانت بدء تطوّر الإنسان من حالته الوحشية إلى مرتبته الإنسانية)) [٤٦] .

ح. بعد أن يتوصّل النويهي إلى العلل النفسية التي أُصيب بها أبو نواس نجده وهو يعرض خاتمة الرجل يقف موقفاً أخلاقياً منه ويركن إلى إشارات لا يجدر للناقد الموضوعي أنْ يتصف بها، فاذا كان قد نصّب نفسه محلّلاً نفسياً كان عليه أنْ يتجرّد من الأحكام المسبقة، وأنْ يلتزم تشخيص العلة ولا يضع من مرض أبي نواس وطريقة موته موضوعاً يتشفّى فيه من سلوكه الشاذ ، وإنَّ العدالة الإلهية أخذت طريقها بموته، إذ يقول : ((وهكذا يقدّم لنا هذا العاصي المعاند أفحم ردّ على اندفاعه وتماديه : إنَّ معّبة الإثم الموت الأليم ... في هذه الخاتمة العبرة الكافية، وفيها الردّ الحاسم على تزويقه للفجور– فلقد كانت أيامه الأخيرة بالغة الهول والألم وكانت ميتته من أفظع الميتات التي يتجرّعها البشر)) [٤٧] .

ومن المؤكد إنَّ أبا نواس كان ظاهرة مميّزة لعصره سواء في فضح السلوكيات الشاذة ، أم في نقل صورة عن الأوضاع الاجتماعية والنفسية والحضارية، وهو نفسه أنموذج للتحليل النفسي الذي يكشف جوانب النفس ، وكان له من الطبع ما يسوّغ للآخرين قبول سلوكياته تلك، ومن ثم فأهمّ ميزة يمكن أن نجدها لدى أبي نواس هي أنه كان لا يحتمل نفاق عصره وهو

ما دفعه إلى كسر التابوهات الاجتماعية ومنحنا صورة واضحة عنها. ولربما كان في موقف أبي نواس إشارة الى أن تطوّر الحضارة محكوم في نظامه الداخلي بتوسيع حدود الحريات الشخصية بما يتجاوز حدود الأديان والأعراف الاجتماعية وهي مسألة بحاجة إلى تأمّل.

المبحث الثاني

النواسي بين النرجسية وعقدة أوديب

استلقتْ أخبار النواسي وآثاره الشعرية على سرير المحلّل النفسي ، وكان المحلّل النفسي هذه المرة متمثّلاً بناقدين مهمين هما : العقاد والنويهي في مدة زمنية نشطت فيها الدراسات النفسية في الأدب . وكانت، وما تزال، الاتجاهات النفسية تؤسّس لنفسها وتقوم نظرياتها بناء على ما يتكشّف لها من تقصّي الآثار الإبداعية أو ملازمة الحالات العلاجية ، فكان أبو نواس حالة وجد فيها العقاد والنويهي شخصية نموذجية صالحة للدرس النفسي، وقادرة عبر تناقضاتها ومواقفها الجريئة على الإتيان بثمار إيجابية للنظريات التي اشتغل كلا الناقدين عليها ، فقد خلصت كلتا الدراستين إلى تحديد علل نفسية وسمات شخصية أُعيد تركيبها وقراءتها من بين السطور الشعرية والأخبار الواردة عن الشاعر الذي يبعد عنا مسافة قرون طويلة ، ولربما واحدة من ايجابيات الدرس النفسي قدرته على تحليل نفسية الإنسان وشخصيته متجاوزاً البعد الزمني والمكاني لأنّه يلتقط القضايا التي تتعلّق بالنفس البشرية على اختلاف زمنها ومكانها.

ومن المؤكد إنَّ إطار البحث لن يكتمل بالبحث في كتاب نفسية أبي نواس فقط لأن الدراسة تستجلب قسراً الدراسة التي أنجزها العقاد عن أبي نواس أولاً لانهما تناولا موضوعاً مشتركاً وهو الشاعر أبو نواس ، وعُرضت الدراستان عبر منهج التحليل النفسي، وإنْ اختلفت الأدوات التي وظّفوها، ومن المهّم التذكير بأنَّ القراءتين جاءتا في مدة زمنية متقاربة، وكان السبق لكتاب العقاد.

ومع الاطلاع على كلتا الدراستين نجد أنفسنا نطرح تساؤلاً لربما يأخذ شكل الإشكالية يبدأ من عنوان كتاب النويهي (نفسية أبي نواس) ، ويظهر بصورة واضحة في بعض عناوين فصول كتاب العقاد، ألا وهي إشكالية الناقد / المحلّل النفسي، فكما نعرف أنَّ الدراسات في مجال التحليل النفسي وعلم النفس قد تطوّرت على أيدي أطباء نفسانيين وباحثين في مجال علم النفس العام والخاص مثل الطبيب النمساوي سيجموند فرويد الذي حقّقت دراساته ثورة في مجال التحليل النفسي، وعالم النفس كارل يانغ ، والطبيب الفرد ادلر، وإنَّ فرويد من أوائل الذين درسوا الأثر النفسي في الأدب فتقصّى الأثر الإبداعي عند دستوفسكي وشكسبير، الأمر الذي نجده مختلفاً هنا، فالنويهي والعقاد ناقدان أدبيان خصّصا كتابين لمتابعة شخصية أبي نواس وملاحقة صورته المغيبّة من داخل النفس مستفيدين من الأثر الإبداعي، والأخبار المنقولة عن الشاعر ، الأمر الذي ربما يضع الدراسة برمّتها تحت موضع النقد من حيث مدى اعتماد الأسس والمعايير العلمية لتحديد المرض النفسي والعقدة التي يعاني منها الشاعر، أو حتى الجزم بحسب معطيات التحليل النفسي بمرض الشاعر من عدمه، وبرأيي إنَّ ما قُدم من شواهد شعرية لربما يمكن توجيهه باتجاه ثالث ورابع عند تحليل نفسية الشاعر، على أنَّ الطبيب النفسي والباحث المتخصّص في علم النفس ستكون أمامه فرصة أكبر لإقناعنا بما يتوصّل إليه.

من هنا فإنَّ إشكالية الناقد الذي يقوم بدور المحلّل النفسي واجهتنا عندما وجدنا أنَّ العقاد يشخّص مشاكل أبي نواس

النفسية، ومن جهة أخرى يستدلّ النويهي بأبيات الشعر نفسها ؛ ليؤكد إصابته بعلّة نفسية مغايرة، ففي الوقت الذي يرجع العقاد فيه سلوكيات النواسي إلى نرجسيته المفرطة، يقف النويهي ليربط أغلب مواقف النواسي وأخلاقياته بعقدة أوديب. وما نوّد إيضاحه هو إنَّ النص الشعري يمكن أنْ يُستنطق بأكثر من طريقة والمرض النفسي بحاجة في نهاية الأمر لباحث نفسي أو طبيب لتشخيصه، ولربما يقال إنَّ ذلك ينفع في حال العلاج ، ونحن هنا لسنا بإزاء معالجة وإنّما اقتفاء أثر الشخصية ونفسيتها وعوالمها الداخلية عبر اللغة والمواقف وهو ما يشبه توظيف مناهج تاريخية واجتماعية في دراسة الأدب ؟ وإجابتنا ستكون إننا لا ننفي أهمية المنهج النفسي في دراسة الأدب ، بل بالعكس فتطبيق هذا المنهج يساعد في فهم كثير من دوافع الشخصيات وتحليل مواقف وحالات سلوكية أثرت علم النفس بالدرجة الأولى ، إلاّ إننا في هذه الحالة لا نجزم بقطعية النتائج التي توصّل إليها كلا الكاتبين بل نقبلها بشكل نسبي قابل للتغيير لاسيما إنَّ النظريات التي كانت في زمن تأليف الكتابين قد تعرّضت لنقد ومراجعة، ومنها نظريات فرويد التي اعتمد النويهي على جانب كبير منها ، إلى جانب ذلك فإنَّ تطبيق النظريات النفسية لم يكن يعتمد على منهج واضح ، ففي الوقت الذي تبدو فيه دراسة العقاد مخصّصة لموضوع النرجسية وتعقّب أطوارها وتمثلاتها، نجد النويهي يوظّف نظريات فرويد ودراساته في الغريزة وتأثيرها على السلوك، وعلى نظريات ادلر المتعلّقة بالنقص والتعويض، ونظريات جان لاكان في توظيف اللغة للتعبير عن الدوافع النفسية ممّا وضع المنهج في صورة مربكة حاول أن يربطها ويقيم أوتادها عبر الإتكاء على النصوص الشعرية التي تحتمل التوجيه، وهو ما يجعل البحث موّزعاً بين عدة نظريات تفقده إطاره النظري، وتجعلنا نصطدم بصعوبة التمييز الواضح بين المناهج الموظّفة، بسبب عدم التزام الخصوصية المنهجية الواضحة في الإشارة إلى المرجعية المعتمدة، ولا تلتزم بنسق متجانس من الأطروحات النظرية. وأمام هذه الحال يتعذّر إقامة تصنيف دقيقٍ لمسار الدراسة. وتكمن الصعوبة في الضبط الدقيق للخصوصيات المنهجية لأغلب النقاد الذين درسوا النصوص الأدبية من منطلقات نقدية لا علاجية، لأنهم يزاوجون بين منظورات نقدية ومقاربات منهجية مختلفة .

وبشكل عام فان الدراستين تلتقيان مع بعضهما البعض في جوانب وتفترقان في جوانب أخر، ولكنهما في المحصّلة تكشفان لنا عن أهمية هذا المنهج وكشوفاته لاسيما عندما نستقرئ بها النصوص الأدبية ، وسنختم بحثنا ببيان بعض الجوانب التي أشرنا إليها، وهي:

١- يعدّ العقاد الخمر، وإظهار المحرمات من مكوّنات الشخصية النرجسية ، في حين يقاربها النويهي من مبدأ العلل النفسية بعقدة أوديب [٤٨].

٢- يشير العقاد إلى أنه من الممكن أن تكون عقدة النسب هي العقدة الوحيدة التي توجد في حياة النواسي، وهو ما يتناوله النويهي أيضاً ، وفي الوقت الذي يرفض فيه العقاد المبالغة بعقدة أوديب في نظرية فرويد، نجد أنَّ النويهي يتبنّاها في تحليل نفسية أبي نواس. [٤٩]

٣- يمتاز النويهي بتحليل الخبر التاريخي ومقارنته بأحداث أخرى مثلما نجد في خبر أم أبي نواس ومهنتها فهو لا يقبل بتبنّي الخبر ويؤسّس على موضوع زواج والدته على اعتبار أنه غير مشكوك به تاريخياً [٥٠].

٤. العلاقة بين الخمر والشذوذ يجمعهما التعويض لدى النويهي ففي فشله بالاتصال بالأنثى يلجأ إلى الخمر

ليعوّضه عن الفشل، بينما يقول العقاد إنَّ إسرافه في الخمر وعقدة الإدمان نشأت في بعض أسبابها من عدم توافره على نسب يتفاخر به فلجأ إلى مجالس اللهو حيث لايكون هنالك اهتمام بالأنساب. ومن ثم هنالك رأي آخر يتطرّق إليه العقاد وهو إنَّ النواسي لربما كان غير مرغوب به من المرأة [٥١]، وهي فرضية قد تدفع جانباً مهما من دراسة النويهي بشأن عقدة أوديب وأسباب شذوذ أبي نواس.

٥- يتوافق النويهي مع ما طرحه العقاد عن طباع النواسي، وهو ما يشير إلى انفتاح دراسة النويهي على أكثر من تخصّص ((والتقسيم الأعمق أن نقسّم الناس إلى معتدل المزاج مستقيم الطبع وإلى هائج الحسّ منحرف المزاج)) [٥٢] .

٦- يرجع العقاد تحدي أبي نواس لمواعظ الدين إلى النرجسية التي ترغب بتحدي المجتمع وإظهار الذات كحالة فردية ، حبّ العرض والتشهير ، بينما يعيدها النويهي إلى الطبع والانفعال والمزاج ((فهو لا يقتصر على الإقرار بأنَّ سلوكه غير الرشاد ، بل يصرّح بأنه طالما حاول أنْ يحمل قلبه على إتباع الرشد وكثيراً ما زجره ولكنه لم يفلح فإنَّ جبلته وأخلاقه تسوقه إلى الغيّ وإتباع الرشد لايوافق طبيعته)) [٥٣] ، لكن النويهي يعود ليشير في موضع آخر إلى العرض ((هو مايسميه النفسانيون العرض أو التشهير بالنفس، ويعطون له شواهد متعدّدة يصل المصاب إلى أقصاها حين يقوم في مكان عام فيخلع عن جسده ذكرا كان أو انثى جميع ملابسه ويبدو للناس كما ولدته أمّه)) [٥٤]، وهو هنا يذهب إلى ماذهب اليه العقاد في إصابة أبي نواس بهذه العقدة لكنه يرجعها إلى سبب غير النرجسية وحسب ما يقول علماء النفس : ((هذا التشهير بالنفس من أبي نواس هو في حقيقته إعلان عن سخطه على عقدته الدفينة وبرمه والتوائه الذي لم يستطع له إصلاحاً ، فهو يحوّل سخطه إلى نفسه ويتلذّذ بالانتقام منها بأقسى انتقام يستطيعه)) [٥٥] .

٧- بعد أنْ جمع لنا العقاد والنويهي جميع الأسباب التي تؤكّد أنَّ أبا نواس كان مصاباً بعدة علل في نفسه، وفي شخصيته تسبّبت بإدمانه الخمر وسلوكه الشاذ وضعف إرادته على تغيير طباعه وسلوكه ، يخفّف كلا الناقدين من حجم تأثير أخطاء النواسي ملتمسين انعكاساً لها في سلبيات المجتمع، وإنَّ النواسي كان حالة ضمن المجتمع الذي تلاقحت فيه الثقافات والأفكار ففسد شأنه شأن المجتمعات الراقية التي تفتح أبوابها لمختلف القوميات وما تضمّنه لهم من حريات اللهو والعيش والمتعة بعيداً عن حدود السلطة، وفي ذلك يقول النويهي : ((لم يدخل أبو نواس على عصره فساداً لم يكن فيه ، والذي فعله هو أنه صرّح بما كانوا يفعلونه في السرّ ، صحيح أننا حلّلنا دعوته إلى المجاهرة بالإثم ووجدناها في أصلها اندفاعاً هستيريا تحدوه الرغبة في التشهير بالنفس والانتقام منها ومحاولة عصبية في التغلّب على عمق شعوره بالذنب)) [٥٦] . وكذلك يحاول العقاد أن يلتمس لأبي نواس عذره بضعف المجتمع في خاتمة كتابه [٥٧]. صحيح إنَّ العقل يضبط السلوك ويتحكّم في الغريزة، لكننا جميعا إزاء ضوابط أُخر غير العقل فالعرف والدين ولربما التربية وغير ذلك تساهم في توجيه غرائزنا ، فجزء مّما ابتلي به النواسي هو ضريبة الشاعر عندما تصاب إرادته بالضعف ازاء رغباته في حدود واهية يضعف المجتمع عن حمايتها .

وممّا لا شكّ فيه أنَّ النويهي والعقاد كليهما أسرف في تحميل شخصية أبي نواس ما يمكن أنْ تحتمله نصوصه من التوجّهات النفسية والشخصية، لا بل يمكن أنْ نعدّ احتمال إصابة النواسي بالجنون الذي

أشار إليه النويهي في كتابه بأعراضه تلك التي لم يسهب في شرحها، مبالغة في إتباع مفردات المنهج النفسي عندما نجد أنه قد يعتمد على أعراض محدّدة، في حين إنَّ الهوس الاكتئابي يتحمّل عدة أعراض ونحن لا نملك إلاّ القصائد المتفاوتة للاستدلال عليها ونتفا من الأخبار عن تلك المرحلة ((وليس أبو نواس بين أيدينا كي ندفع به إلى عالم باثولوجي أو طبيب ليفحصه ، والذي لا شك فيه على أي حال أننا لا نستطيع أن نجد في ظروف نشأته ونوع تربيته وأحوال عصره تعليلاً كافيا لشذوذه ، وهذا ما نتطرّق الآن إلى شرحه)) [٥٨] كما يقول النويهي نفسه.

والغريب بعد كل ما وقفنا عليه أننا لا نجد إشارة لدراسة العقاد في أية صفحة من صفحات كتاب نفسية أبي نواس، وكأن النويهي لم يطّلع على كتاب العقاد ، مع أنَّ الكثير من القواسم المشتركة التي أثارها العقاد وتحدّث عنها بعيداً عن حياة أبي نواس كحديثه عن اوسكار وايلد في معرض الحديث عن الشذوذ [٥٩]، والظروف الاجتماعية في زمن أبي نواس، نجد النويهي يتطرّق إليها ، ولا يمكن لأي باحث أن لا ينتبه لذلك، وهو أمر غريب على النويهي الذي يضع لنا أكثر من هامش يعترف فيه بأنه مدين لأشخاص لأنهم نبّهوه إلى فكرة ما لقي فيها فائدة في وضع الكتاب ولا يذكر العقاد مطلقاً [٦٠].

وتكشف لنا مراجعة هذين الكتابين عن أفق التطبيق العربي للمنهج النفسي ، وطرائق توظيفها في المجال الأدبي .

الهوامش

١- ينظر : موسوعة كامبردج في النقد الادبي ، القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية ، مجموعة باحثين، المجلد التاسع ، ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. : ٢٩٦-٢٧٠

٢- م ، ن : ٢٥٢.

٣- م . ن : ٢٧٦-٢٧٧ ، وينظر : منازع الفكر الحديث ، الفيلسوف جود، ترجمة : عباس فضلي خماس ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٦ : ٢٧٣.

٤- م . ن : ٢٧٧-٢٨٠.

٥- ينظر : م . ن : ٢٤٨.

٦- ينظر : منازع الفكر الحديث : ٢٩٠-٢٩١.

٧- م ، ن : ٢٥٤.

٨- م . ن : ٢٥٤.

٩- ينظر : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، محمد خلف الله أحمد ، قسم البحوث والدراسات اللغوية ، ط٢، ١٩٧٠ : ٣٨.

١٠- ينظر: المغيب والمعلن ، قراءات معاصرة في نصوص تراثية ، د. ناية غازي العزاوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ٢٠٠٢ : ١٦٢.

١١- ينظر: نفسية أبي نواس ، محمد النويهي، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٣ : ٤٣.

١٢- ينظر : م ، ن : ٥٠.

١٣- ينظر : نفسية أبي نواس : ١١٠.

١٤- م ، ن : ١٤٩.

١٥- ينظر : م . ن: ٩.

١٦- م ، ن : ٤٤.

١٧- م ، ن : ٧٢ ومابعدها.

١٨- ينظر : م ، ن : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١، ١٨٩.

١٩- م ، ن : ٢.

٢٠- ديوان أبي نواس : ٨٥/٣.

٢١- نفسية أبي نواس : ٣.

٢٢- م . ن : ٦ .

٢٣- ينظر : م ، ن: ٨٠ ، ٨١.

٢٤- م ، ن : ٨٩.

٢٥- م ، ن ١٨٠ -١٨١.

٢٦- ينظر م ، ن : ١٥٤.

٢٧- ينظر م ، ن : ٩١.

٢٨- لابد أن أشير في هذا الصدد الى أنَّ الكتاب الذي وقع بين يدي هو طبعة عام ١٩٥٣ مكتبة النهضة المصرية، وهو أول طبعة صدرت للمؤلف لهذا الكتاب ، ومع استمراري بالبحث عن كل ما يتعلق ببحثي هذا علمتُ ان الطبعات الأخر لكتاب نفسية أبي نواس وردت فيها المقدمة التي افتقدتها الطبعة الاولى .

٢٩- نفسية أبي نواس : ١٩٦.

٣٠- م ، ن : ١١٢.
٣١-م ، ن : ٢٠٤.
٣٢- م ، ن : ٣٥.
٣٣- ينظر : م ، ن : ٣٥ وما بعدها.
٣٤- ينظر : نفسية أبي نواس : ٩٣-٩٤-١٠١.
٣٥- م ، ن : ٢٠.
٣٦- ديوان أبي نواس : ١٦/٣.
٣٧- م ، ن : ٢٢/٣.
٣٨- ينظر : نفسية أبي نواس : ٥٠ الابيات وتحليل النويهي لها في الصفحات التي تليها فهي لاتبتعد عن هذا العمق في التحليل.
٣٩- ينظر: سيكولوجية المرأة ، ج. هيمانس، ت . سامي الدروبي، مطبعة الاعتماد، القاهرة ، د.ت : ٣٥.
٤٠- ينظر : المغيب والمعلن ، قراءات معاصرة في نصوص تراثية : ١٦٢.
٤١- ينظر : نفسية ابي نواس: ٦.
٤٢- ديوان أبي نواس : ١٥٥/٣.
٤٣- ينظر : نفسية أبي نواس : ٩٤.
٤٤- م ، ن : ٩٤.
٤٥- م . ن : ١١١.
٤٦- ينظر : م . ن : ١٧٠-١٧١.
٤٧- م ، ن : ٢٠٢-٢٠٣
٤٨- ينظر : نفسية أبي نواس : ١٨٤ ، ينظر : أبو نواس الحسن بن هاني ، عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت :٤٠-٤٢.
٤٩- ينظر : أبو نواس الحسن بن هاني : ٢٦، ٥٦.
٥٠- نفسية أبي نواس : ٩٣-٩٤-١٠١.
٥١- ينظر : أبو نواس الحسن بن هاني : ١٤٤.
٥٢- نفسية أبي نواس : ١٦٧ . وينظر : ١٦٩.
٥٣- م . ن : ١٢٦.
٥٤- م . ن : ١٨٢.
٥٥- م. ن : ١٨٤.
٥٦- م ، ن : ٢٠٩.
٥٧- ينظر : أبو نواس الحسن بن هاني : ١٦٧.
٥٨- نفسية أبي نواس : ٩٢.
٥٩- ينظر : م . ن : ٨٦.
٦٠- ينظر : م . ن : ١٦٣.

المصادر والمراجع

١- أبو نواس ، الحسن بن هاني، عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت.

٢- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق : ايفالد فاغنر ، دار صادر – بيروت، ط١ ، ١٤٠٨-١٩٨٨م .

٣- سيكولوجية المرأة ، ج. هيمانس، ت . سامي الدروبي، مطبعة الاعتماد، القاهرة ،د.ت

٤- محمد النّويهي .. وثورةُ الفِكر الديني، محمود مراد ، مجلة العربي ، ع ٦٥٩ ، تشرين الأول ، ٢٠١٣.

٥- المغيب والمعلن ، قراءات معاصرة في نصوص تراثية ، د. ناية غازي العزاوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ٢٠٠٢.

٦- منازع الفكر الحديث ، الفيلسوف المعاصر جود،نقله الى العربية ، عباس فضلي خماس، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٥٦.

٧- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، محمد خلف الله أحمد ، قسم البحوث والدراسات اللغوية ، ط٢ ، ١٩٧٠ : ٣٨.

٨- موسوعة كامبردج في النقد الادبي ، القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية ، مجموعة باحثين ، المجلد التاسع ، ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.

٩- نفسية أبي نواس ، د محمد النويهي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٣.